

في التنظيم الثوري السري

بعد وفاة نور الدين زنكي خرج صلاح الدين على رأس قوة من الخيالة ووصل دمشق في ١١٧٤م وسط ترحيب الأهالي. قام بنشاط عسكري مكثف لضم باقي مناطق الشام لسلطته، فزحف على حمص، حماة، حلب... وبذلك توحدت مصر وسوريا تحت قيادة سياسية واحدة كان الهدف منها حشد الطاقات المادية والبشرية لمعركة تحرير الديار العربية والإسلامية.

في ١١٧٧م هاجمت قوات صلاح الدين الفرنجة في ريف ومنها توغل إلى عمق الأراضي الفلسطينية، ولكن قواته هزمت في الرملة وتشتتت ولم يصل السلطان القاهرة إلا بعد أسبوعين ضارباً في رمال الصحراء...

ومن جانب آخر توالى غارات المسلمين على شمال فلسطين، بما أفقد الفرنجة أمنهم وثقتهم بأنفسهم، فوقع عدد من الممالك والامارات هدنة مع صلاح الدين.

أعد صلاح الدين جيشه وتوجه لفلسطين مرة ثانية، وكانت المعركة الأولى تحرير طبريا، وفي تموز ١١٨٧م دارت معركة حطين التي انتهت بهزيمة الفرنجة، وكان الانتصار في حطين بداية الانتصار في عموم فلسطين.

أما تحرير القدس بعد قتال ضار فكان الذروة. ويؤرخ ستيفن رنسيمن بالقول (الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فيما الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة خاضوا بدماء ضحاياهم... انتشرت شرطة صلاح الدين في الشوارع لمنع الاعتداء على بيوت المسيحيين) (٦٣). وبعد دفع الفدية غادر الفرنجة مع عائلاتهم، ولم يتبق سوى الأرثوذكس واليعاقبة، فابتاع أغنياؤهم املاكاً خاوية وأعفى فقراؤهم من دفع الجزية. ومع ذلك (بلغ عدد الذين استرقوا بعد عجزهم عن دفع الفدية ١٥ ألفا سيقوا زرافات إلى أسواق الرقيق في أقطار الإسلام) (٦٤).

لم يتبق في أيدي الفرنجة سوى بعض الحصون ومناطق ساحلية محدودة.

وانطلقت الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٨٩م التي مهد لها بالصيام يوم الجمعة على امتداد خمسة أعوام كما أفتى البابا غريغور، واشترك فيها كبار الفرسان ورجال الدين والإقطاعيون. واتسعت المعارك حول صور والشقيف وعكا... وحملت النتائج أبعاداً ايجابية للفرنجة حتى أن عكا سقطت في أيدي الفرنجة وتعرضت لمذبحة جماعية، (وأمر صلاح الدين بتدمير عسقلان واللد

(٦٣) د. الحوت، مرجع سابق، ص ١٢٣

(٦٤) د. عثمانة، مرجع سابق، ص ١٠٠